أيُّ نفاق وأيُّ مكر!!

أسعدتنا من قريب، صحبة آيات كريمات من سورة البقرة، أيأسَ الله فيها المؤمنين، من أن يقف اليهود موقف التصديق والإيمان برسالة النبي محمد عليه الصلاة والسلام. كيف وهم أحفاد أولئك الذين قست قلوبهم، من بعد ما رأوا الآيات البينات، فهي كالحجارة أو أشد قسوة، وتراهم يترسَّمون خطاهم، ويسلكون نهجهم، في ارتياد مسالك الضلال والانحراف، وفي الوقت نفسه: يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون... ولا تسل عن نفاقهم؛ والنفاق شرٌّ كله، في كل زمان ومكان.

والآيات التي نعنيها، هي قول الله تبارك وتعالى، بدءاً من الآية الخامسة والسبعين في السورة المشار إليها: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: ٧٥ – ٧٧].

ونحن الآن، على موعد لاصطحاب الآيتين الأخيرتين، بدءاً من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا...﴾ الآيتين؛ ذلك أن نفراً من اليهود لجؤوا في عدائهم لرسول الله وأصحابه، إلى هذا النوع من السلاح، وهو النفاق؛ فإذا لقوا محمداً عليه الصلاة والسلام، قالوا: آمنا بالذي

جئت به، وإذا لقوا أصحابه، قالوا: آمنا بما آمنتم به، وإن صاحبكم لصادق؛ روى الطبري بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ وذلك أن نفراً من اليهود كانوا إذا لقوا محمداً ﷺ قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم. وفي رواية أخرىٰ عن ابن عباس أيضاً ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ يعني المنافقين من اليهود، كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا: آمنا.

على أن رواية ثالثة، تكشف عن تعدد الوقائع في هذا الذي يفعلون، كما تكشف عن شيء من دخيلة أنفسهم فيما يقولون؛ إذ كان نفر منهم يقولون للصحابة ـ من يلقون منهم ـ: آمنا بصاحبكم، ولكنه إليكم خاصة؛ ذلكم ما جاء في رواية عن عكرمة أو عن سعيد ابن جبير ـ كما يقول الطبري ـ عن ابن عباس – رضي الله عنهما – ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا...﴾ أي بصاحبكم رسول الله ﷺ ولكنه إليكم خاصة.

وهكذا تدل الروايات في تفسير الآية الكريمة. أن ذلك خبر من الله جل شأنه عن الذين أيأس أصحابَ محمد ﷺ من إيمانهم من يهود بني إسرائيل، الذين هم أحفاد أولئك الذين قست قلوبهم، وران عليها الضلال، ولا يحيدون عن طريقهم قيد أنملة، والذين كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون... وليس ذلك فحسب، بل هم الذين ـ إذا لقوا الذين صدَّقوا بالله، وبمحمد عليه

الصلاة والسلام، وبما جاء به من عند الله ديناً قيماً للناس كافة ـ قالوا: آمنا، أي صدَّقنا بمحمد وبما صدَّقتم به وأقررنا بذلك. أخبر الله عز وجل عنهم أنهم تخلقوا بأخلاق المنافقين، لأن المد الإسلامي المبارك، حوَّل ميزان القوى، فلم يعد الأمر لصالحهم وفق مقاييسهم الآثمة، فلجأ فريق منهم إلى النفاق، وإن كانت بعض الروايات قد صرحت بأنهم كانوا يقولون للصحابة: آمنَّا بصاحبكم ولكنه إليكم خاصَّة.

غير أن هذا الذي كان يفعله المنافقون من اليهود، من التظاهر بالإيمان، لم يَرُقْ لرؤسائهم وأصحاب الكلمة فيهم، لما أن النطق بكلمة الإيمان: اعتراف بما جاء في التوراة من نعت محمد ﷺ، وأمرِهم بالإيمان به حين يبعث؛ فإذا عرف المسلمون ذلك، احتجوا به عليهم، ولذلك كانوا يقولون لهم: أفلا تعقلون؟ فقد ورد عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿**وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾ أي تقرُّون بأنه النبي الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، اجحدوه ولا تقرّوا لهم به، يقول الله تعالى: ﴿**أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ**﴾؟ وقال الحسن البصري: (هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم: لا تحدثوا أصحاب محمد ﷺ بما فتح عليكم في كتابكم ليحاجُّوكم عند ربكم فيخصموكم). وروي التصريح بنعت محمد ﷺ عن أبي العالية وقتادة في معنى ﴿**أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ**﴾ أي بما أنزل الله عليكم في كتابكم من نعت محمد ﷺ، فإنكم إذا فعلتم، ذلك احتجوا عليكم ﴿**أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾.

وهكذا لم ينكروا عليهم النفاق لذاته، ولكنهم أنكروا أن يكون ذلك سبباً في إعطاء المسلمين ذريعة الاحتجاج عليهم، لأنه كشفٌ عما في كتابهم من نعت محمد ﷺ وأمْرٌ لهم بالإيمان به حين يبعث. يؤكد ذلك ما ورد من أن النبي ﷺ قال لبني قريظة الذين نقضوا العهد وخانوا الأمانة: قال لهم ـ وقد قام تحت حصونهم ـ: «يا إخوان القردة والخنازير ويا عبدة الطاغوت» فقالوا: من أخبر بهذا الأمر محمداً؟ ما خرج هذا القول إلا منكم. القائلون هم سدنة الضلال فيهم، والمخاطبون هم أولئك الذين كانوا ينافقون.

ولكن يبدو أن مكر يهود، هداهم إلى أن يظل أمر النفاق سارياً لتحقيق أغراض؛ منها معرفة أخبار المسلمين وما يدور في المدينة، على أن تؤخذ الحيطة، ويعودَ هؤلاء المنافقون، فيصرحوا بالكفر لدى رؤسائهم وقومهم، وذلك عندما حدد النبي عليه الصلاة والسلام صفة من يسمح له بدخول المدينة، وأنه لا يجوز أن يدخلها إلا مؤمن. يوجهنا إلى ذلك، ما ورد عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فيما رواه ابن وهب عنه في دلالة الآية الكريمة حيث قال: كانوا إذا سئلوا عن الشيء قالوا: أما تعلمون في التوراة كذا وكذا؟ قالوا: بلى! قال: وهم يهود، فيقول لهم رؤساؤهم الذين يرجعون إليهم: ما لكم تخبرونهم بالذي أنزل عليكم فيحاجوكم به عند ربكم؟ أفلا تعقلون؟ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخلَن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن». فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق: اذهبوا فقولوا: آمنا واكفروا إذا رجعتم. قال: فكانوا يأتون المدينة بالبُكَرِ ويرجعون إليهم بعد العصر، وقرأ قول الله: ﴿**وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ**

﴿أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢].

وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة: نحن مسلمون، ليعلموا خبر رسول الله ﷺ فإذا رجعوا، رجعوا إلى الكفر فلما أخبر الله نبيه ﷺ، قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون. وكان المؤمنون الذين مع رسول الله ﷺ يظنون أنهم مؤمنون. فيقولون لهم: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا؟ فيقولون: بلى. فإذا رجعوا إلى قومهم ـ يعني الرؤساء ـ قالوا ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ...﴾ الآية.

البُكَرَ: جمع بُكْرَة. جاء في «المصباح المنير»: البُكْرَةُ من الغداة: جمعها بُكَرٌ مثل غُرفَةٍ وغُرَف.

أرأيت إلى هذه السمة من سمات اليهود؟ إذا قويت شوكتهم، لأسباب من هنا وهناك، كان منهم ما نرى وما نسمع في واقعنا اليوم. وإذا شعروا بالضعف، لجؤوا إلى أسلحة أخرى؛ من أبرزها النفاق، كما ظهر ذلك في عهد النبي ﷺ، وإن كانت يقظة المسلمين يومذاك، قد حالت دون تحقيق ما يريدون... ثم كانت الحرب العلنية، ونصر الله عباده المؤمنين عليهم إلى أن حُكم بجلائهم عن جزيرة العرب.

ألا إن آيات الكتاب الكريم، ونصوص السنة المطهرة والسيرة النبوية الكريمة، حافلة بأخبار هؤلاء المنافقين قساةِ القلوب، على الوجه الذي ينبغي أن يكون نبراساً في ترشيد العلاقة بهم، إيماناً صادقاً ويقظة لكل شاردة وواردة، وجهاداً في سبيل الله تتمثَّل فيه اللغة المناسبة التي لا

لغة سواها لنصرة الحق وأهله، على الباطل وسدنته ومظاهريه. وذلك ما تؤكده الوقائع يوماً بعد يوم.

والله المسؤول أن يزيل الغشاوة عن الأعين، ويردّ الأمة رداً جميلاً واعياً إلى ما جاء في كتابه الكريم، وسنة نبيه المصطفى ﷺ، وما نطقت به وقائع التاريخ ـ بدءاً من السيرة العطرة ـ حتى يوم الناس هذا.. وصدق ربنا جل شأنه إذ يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩].

obeikandl.com

وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً

من خلال الكلمات القرآنية الهادية في شأن اليهود، وما ران على قلوبهم من القسوة، التي كان لها انعكاساتها على تصرفاتهم، حيث بات الانحراف الضالُّ في السلوك، وتحريف الكلم عن مواضعه، سمةً مميزة لهم ـ كل أولئك بعد الذي عاينوا من الآيات والمعجزات التي منها إحياء الموتى بإذن الله ـ. من خلال الكلمات الهاديات المباركات، يتبدى للناظر الفهم: تحذير المؤمنين أن يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون كما جاء في سورة الحديد. كما يتبدىٰ له، تيئيس الله المؤمنين من أن يطمعوا في إيمان اليهود، بعد الذي بدا من قسوة قلوبهم، فهي كالحجارة أو أشد قسوة؛ وكان هذا الداء المردي من بعد ما ظهر لهم من الآيات التي لا تدع ريبة لسمتريب، في أن الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، هو القاهر فوق عباده، وهو المحيي المميت، وأنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

وانضم إلى هذا، أنه كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون. وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: ٧٧] وذلك ما رأيناه في سورة البقرة.

وليس بدعاً ـ والحديث عن القلوب القاسية عند يهود بني إسرائيل،

وما كشف الكتاب العزيز عن آثار ذلك في حياتهم وسلوكهم، وما كان من توجيه المسلمين إلى المنهج السليم الذي يضمن الذاتية وعدم تقليد أولئك المغضوب عليهم ـ. ليس بدعاً أن يقودنا هذا الحديث إلى حقيقة أعلنها القرآن الكريم، وهي أن قسوة القلب: كانت مما عاقب الله به يهود بني إسرائيل، على نقضهم الميثاق الذي واثقوا الله عليه، وخيانتهم أمانة الدين التي اؤتمنوا عليها؛ ذلكم ما نجده في سورة المائدة من قول الله تبارك وتعالى في الآية الثانية عشرة منها: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢] ثم قال جل شأنه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣].

هكذا أخبر الله عز شأنه عن بعض غدرات اليهود وخياناتهم، وجراءتهم على ربهم، ونقضهم ميثاقهم الذي واثقهم عليه بارئهُم، مع نِعَمِهِ التي أفاضها عليهم وخصهم بها، ومكارمه التي لم ينهدوا إلى شكرها.

لقد أخذ ميثاقهم، أن يكونوا على الصراط السوي؛ اتباعاً للدين، وعملاً بما جاءهم به رسلهم من عند الله، وبعث منهم اثني عشر نقيباً ـ

عرفاء على قبائلهم ـ بالمبايعة بالسمع والطاعة لله ولكتابه ولرسوله. ووعدهم بأن يكون معهم بالنصر والمعونة، إن هم استقاموا على الطريقة؛ إقامةً للصلاة وإيتاءً للزكاة، وتصديقاً للرسل فيما يجيئونهم به من الوحي، ونصرتَهم ومؤازرتهم على الحق، وإنفاقاً في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وأنهم إن فعلوا ذلك، كان لهم حسن العاقبة من تكفير السيئات ودخول جنات تجري من تحتها الأنهار. ومن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده، فسلك السبيل المعوجة، حتى كأنه ليس هنالك من ميثاق، فقد أخطأ الطريق الواضح وعدل عن الهدى إلى الضلال ورضي لنفسه العماية، بديلاً عن القلب المبصر، والنور المبين.

ولأمر ما، جاء ذلك كله مفصلاً في الآية التي أوردناها آنفاً مبدوءاً بالقسم فقال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا...﴾ وليس ذلك فحسب. بل جاء الترغيب العظيم بالعمل والاستقامة بهذا الوعد من الله، ولا يخلف الله وعده فقال سبحانه: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

سبحان الله أيُّ ترغيب هذا الذي نرى؟ وأيُ وعد كريم من رب كريم، ما نقرأ؟ ولكن اليهود هم اليهود. ثم جاء الوعيد لمن كفر بعد ذلك، الأمر الذي يعطي صورة التكامل في منهج الهداية، فالبشارة لمن آمن واستقام، والنذارة لمن جحد، وتنكب طريق الاستقامة والهدى، ذلكم قوله تعالى: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾. قال الإمام الطبري في

تفسير ذلك: (يقول عز ذكره: فمن جحد منكم يا معشر بني إسرائيل، شيئاً مما أمر به، فتركه، أو ركب ما نهيته عنه، فعمله بعد أخْذي الميثاق عليه بالوفاء لي بطاعتي، واجتناب معصيتي: فقد ضل سواء السبيل. يقول: فقد أخطأ الطريق الواضح وزلَّ عن منهج السبيل القاصد).

ولكن بني إسرائيل لم يحل دونهم، ودون أن يركبوا متن الضلال ويتخذوا سبيل الغيِّ سبيلاً، وعدٌ ولا وعيدٌ؛ فلا وعدُهم بكل ذلك الخير والمثوبة، بعد أخذ الميثاق، وبعثِ اثني عشر نقيباً، ولا وعيدُهم بأن نقضَ الميثاق والجنوح عن الهدى، ضلالٌ عن سواء السبيل: غيَّر من واقعهم النفسي أو السلوكي؛ فكان أن نقضوا الميثاق الذي أعطوا الله عهدهم عليه، وتعدُّوا حدود الدين، وجاهروا الله سبحانه بالعداوة، والمخالفةِ عن أمره. وبدل أن يطيعوا، ويفعلوا ما يقربهم إلى خالقهم، كانوا على النقيض من ذلك بإصرار مهين. من أجل ذلك، حق عليهم العقاب، فكان اللَّعن، وكانت قسوة القلب، وترتب على ذلك ما ترتب من أمور عظام؛ جاء ذلك صريحاً في الآية التي تلت؛ فبعد قوله سبحانه في ختام الآية السابعة: ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ نقرأ قوله جل وعلا: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وأنت ترى، أن الكلام واضح في ترتيب المسبَّب على السبب، فبسبب نقضهم ميثاقهم: لعنهم الله، وأبعدهم عن رحمته، وجعل

قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه.. وهكذا ـ كما أشرنا في صدر هذا الحديث ـ كانت تلك القسوة في عداد ما عاقبهم الله به على نقضهم الميثاق، وهي قسوة رانت على قلوبهم، فأصبحت تلك القلوب ـ لغلظها وقساوتها ـ لا تتأثر بموعظة، ولا تتحرك لكلمة هدىً، بل يعبث أصحابها بكلام الله.

والذين لُعنوا، وجُعلت قلوبُهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، هم أجداد أولئك الذين عانت منهم دعوة الإسلام ما عانت في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وبعده، وعانى هو نفسه ـ فداه أبي وأمي ـ منهم ما الله به عليم. وما تزال أمتنا ـ كما ينطق الواقع المضني ـ تعاني منهم وممن يقع في حبائلهم.

ومن أسلحتهم على أرض الواقع: غفلة أو تغافل القادرين، عن الحقائق التي حملها الخبر الصادق إلى الأمة في شأنهم.

ولئن كانوا ـ وما يزالون ـ على السنن الذي أوضح الكتاب العزيز، وأكدته الوقائع في سيرة الرسول ﷺ، وما كان من شأنهم معه، ناهيك عن تحرك الأفعوان بسمومه عبر التاريخ... لئن كان الأمر كذلك: إنه لكبير حقاً: إعراض المسلمين عن الحق الصراح في منابع وجودهم الفكري والحضاري، وغفلتهم، أو تغافلهم عما يجب على وجه الحقيقة، وأن يؤخذوا بزخرف المصطلحات والمعايير التي تشم منها رائحة يهود..

ألا إن أخذ الحذر ـ كما أمر الله ـ واجب حتم، لا يماري فيه إلا من رانت الغفلة على قلبه، أو كان جاهلاً بأبجديات التاريخ.. ولله عاقبة الأمور.

يعبثون بكلام الله.. سابقهم ولاحقهم

من الحقائق التي أبرزها القرآن وكشف عنها بوضوح: حقيقة أن مرض القلوب الذي بات سمةً من سمات يهود بني إسرائيل، كان مما عاقبهم الله به على نقضهم الميثاق الذي واثقوا الله عليه، وهو أن يكونوا على الصراط السوي، عملاً بالدين، واستقامة على الطريق التي يقتضيها الإيمان. وذلك ما نجده في العديد من المواطن، ومنها ما جاء في سورة المائدة من قول الله جل وعز: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ...﴾ الآية، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وأجدني مسوقاً إلى التذكير بما كان أن أشرت إليه من قبل، من أن الآية الثانية، وهي التي نصت على العقوبة، كشفت عن ترتيب المسبّب على السبب وذلك في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ الآية. فبنقضهم ميثاقهم، أي: بسبب نقضهم ميثاقهم.. قال العلماء: وفي الكلام محذوف اكتفي بدلالة الظاهر عليه؛ وذلك أن معنى الكلام: فمن كفر بعد ذلك منكم، فقد ضل سواء السبيل، فنقضوا الميثاق، فلعنّاهم ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ فاكتفى بقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ﴾ من ذكر «فنقضوا» وهذا من بلاغة القرآن التي لا تجارى.

وهكذا فإن الله ـ وهو الحكيم العليم ـ لم يظلمهم شيئاً، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم، بنقضهم الميثاق، فحَلَّت عليهم اللعنة، وجعل الله قلوبهم قاسية بعيدة عن التوفيق، ليس فيها قطرة من ندى الخير، فلا تخشع لذكر الله، ولا تلين لموعظة، ولا تتأثر بكلمة من كلمات الحق.

هذا: وبسبب من قسوة تلك القلوب، هان على أصحابها أن يحرفوا الكلم عن مواضعه؛ فتراهم يغيِّرون ويبدلون، ويتأولون كلام الله على غير وجهه، كل أولئك من أجل أن يتخلوا عن مسؤولية الكلمة، ويُعفوا أنفسهم من العمل بما أنزل الله.

وليس ذلك فحسب، بل إن فريقاً منهم كانوا يكتبون بأيديهم غير الذي أنزل الله عز وجل على نبيهم، ثم يقولون للجهلة من الناس الذين لا يفرقون بين الحق والباطل: هذا كلام الله المنزل على موسى، والتوراة الموحىٰ بها إليه. ونقرأ في سورة البقرة وعيداً شديداً لهذا الصنف من اليهود، وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ** ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

وكما قلت ـ غير مرة ـ: لما كان الأبناء على نهج الآباء؛ قسوة قلب، واستشرافاً للضلال، وافتراء على الله، واحتيالاً على أوامره ونواهيه، راضين كلّ الرضى عن صنيعهم.. فكثيراً ما يجيء الخطاب للأبناء، باستنكار ما فعل الآباء والأجداد. وقد يجيء الكلام عن الآباء، كأنهم أتوا ما فعله الأبناء. ولنترك للإمام الطبري أن يكشف عن هذه الحقائق التي تدلّ

عليها تلكم الكلمات النورانية، وهي تتحدث عمن نقضوا الميثاق، فحلت عليهم اللعنة، وجعلت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، وضلوا سواء السبيل. قال – رحمه الله –: يقول عز وجل: (وجعلنا قلوب هؤلاء الذين نقضوا عهودنا من بني إسرائيل قاسية، منزوعاً منها الخير، مرفوعاً منها التوفيق، فلا يؤمنون ولا يهتدون. فهم لِنَزع الله عز وجل التوفيق من قلوبهم والإيمان، يحرفون كلام ربهم الذي أنزله على نبيهم موسى صلى الله عليه وسلم، وهو التوراة، فيبدلونه، ويكتبون بأيديهم غير الذي أنزله الله عز وجل على نبيهم، ثم يقولون لجهال الناس: هذا هو كلام الله الذي أنزله على نبيه موسى ﷺ والتوراة التي أوحاها إليه).

ثم أشار شيخ المفسرين إلى مخاطبة الأبناء بصنيع الآباء والكلام على الآباء، كأنهم أتوا ما أتى الآباء، لما أن المنهاج متحد في الكذب على الله، والجراءة على نقض المواثيق، وخيانة العهود، فقال – رحمه الله –: (وهذا من صفة القرون التي كانت بعد موسى من اليهود ممن أدرك بعضهم عصر نبينا محمد ﷺ. ولكن الله عز ذكره أدخلهم في عداد الذين ابتدأ الخبرَ عنهم ممن أدرك موسى منهم؛ إذ كانوا من أبنائهم، وعلى منهاجهم في الكذب على الله، والفرية عليه، ونقض المواثيق التي أخذها عليهم في التوراة).

ومما نجد في الآية الكريمة: أن تحريف الكلم عن مواضعه، ليس الموبقةَ الوحيدة التي اقترنت بقسوة القلوب عند القوم ـ والعياذ بالله ـ فنحن نقرأ فيها قول الله عز وجل شأنه: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. جاء ذلك بعد

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾. والحظ هنا: النصيب، فقد روى الطبري عن السدي أنه قال: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ يقول: تركوا نصيباً. والمعنى: تركوا أمر الله رغبة عنه، فتركهم الله؛ إنه تبارك وتعالى لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون. فهؤلاء اليهود: تركوا أمر الله إيّاهم بالإيمان والطاعة، مع قيام الأدلة ووضوح الآيات، فلم يفعلوا، فجازاهم الله بأن تركهم. روى أبو جعفر بسنده عن الحسن البصري – رحمه الله – عنه أنه قال: (تركوا عُرىٰ دينهم ووظائف الله تعالى التي لا يقبل العمل إلا بها. ووظائف الله هنا: فروضه التي ألزمها عباده في الإيمان به وطاعته وإخلاص النية له سبحانه). وإذا تصورنا القسوة التي رانت على قلوبهم، فجعلتها لا تخشع لذكر الله، ولا تستجيب لكلمة الله، وجدنا ذلك الذي حصل منهم ـ مما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ـ امتداداً طبيعياً لتلك القسوة. نقل الحافظ ابن كثير – رحمه الله – عن بعضهم قوله في معنى هذه الكلمات المباركات: (تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قويمة).

والحق أن الآية الكريمة، تذكرنا بما جاء في الآية السابعة والستين من سورة التوبة بشأن المنافقين حيث وصفوا ـ فيما وصفوا به ـ أنهم نسوا الله فنسيهم؛ ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧]. أرأيت!! نسي المنافقون ذكر الله، فعاملهم معاملة من نسيَهم. وعند الكلام على المنافقين في سورة

المجادلة، نقرأ قول الله في الآية التاسعة عشرة: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [المجادلة: ١٩].

والجسور الظالمة ممتدة أبداً بين المنافقين واليهود عبر التاريخ، بدءاً من عصر النبي عليه الصلاة والسلام؛ فالقلوب قاسية جافة لا تخشع ولا تتعامل مع كلمة الخير، والانحراف متأصل في النفوس.

أما بعد: فإن الحقيقة الناطقة في السمات التي تطبع سلوك اليهود في الماضي والحاضر. هي ـ كما نرى ـ حقيقة قرآنية، لا يسع مؤمناً جهلها أو تجاهلها.

ولكم نكون منصفين مع تلك الحقيقة، ومع الصدق فيما يجب أن يكون عليه الموقف مع اليهود، ومن ينصر باطلهم... لكم نكون منصفين وقَّافين عند حقنا الذي لا مرية فيه، إذا نحن اتخذنا من ذلك على وجه العموم، ومما تعطي المقدمات فيه من نتائج على وجه الخصوص، منهجاً مدروساً بعناية، ينير السبيل إلى تغيير الواقع الذي يغشىٰ بظلامه الأمة، وتجاوزه إلى واقع جديد، تعلو فيه كلمة الله ويفوز أهل الحق بالنصر والتمكين، ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الروم: ٤، ٥].

ينسون ربّهم.. وينقضُون الميثاق

في عود على بدء، مع الحديث عن العقوبة التي عاقب الله بها يهود بني إسرائيل؛ على نقضهم الميثاق الذي واثقوا الله عليه، وانحرافهم عن الصراط السوي.. نتابع الرحلة المباركة، مع كلمات مباركات من سورة المائدة، جاءت في شأن هؤلاء القوم الذين لم يظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون؛ ذلك بأنهم في مواقفهم من الدين الموحىٰ به من عند الله، يجنحون إلى خيانة العهد، ونقض الميثاق، ولا يعبؤون بوعد ولا وعيد، ولا يلتفتون إلى ما يريهم الله من الآيات الواضحات البينات، والعبرِ الناطقة بالحق، أن لو كانوا من أهل الاعتبار.

من أجل هذا: حلّت بهم النقمة، فجعل الله قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، وكثيراً ما لجأ أحفادهم إلى خيانة رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ فكان ذلك عنوان التطابق بين الأحفاد والأجداد؛ إذ الداء العضال واحد.

ولا تسل ـ وقسوة القلب تعمي البصيرة ـ عن جراءتهم على تحريف الكلم عن مواضعه، وتأوليه على غير وجهه، وهكذا فسدت فهومهم، وساء تصرفهم في آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، بل عمدوا، إلى كتابة كلام من عندهم، وادعاء أنه من التوراة التي أنزلت على موسى عليه الصلاة والسلام.

وليس بدعاً من الانتفاع بالعبر والدروس، وربط النتائج بالمقدمات من

صنيع هؤلاء القوم، أن يقود الكلام على نسيانهم حظاً مما ذكروا به، إلى ما ذكر الله من شأن أحوال المنافقين في سورة التوبة من قوله سبحانه وتعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧]. الأمر الذي يدل على أن النسيان المشار إليه: خصلة بغيضة يشترك فيها اليهود والمنافقون؛ ففي شأن اليهود: نقرأ في سورة المائدة قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣]. وفي شأن المنافقين: نقرأ هنا في سورة التوبة: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾. أي عاملهم معاملة من نسيهم كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥١]. وقوله تعالى في سورة السجدة: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤]. وقوله في سورة الجاثية: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]. وختمت الآية في سورة التوبة بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. أجل وبصيغة التأكيد: هم الفاسقون: أي الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة... وما أكثر السمات الضالة التي تجمع دائما بين اليهودي والمنافق... والمهم أن يحذر المسلمون ويتنبهوا إلى هذه الحقيقة.

هذا وفي سورة طه: صورة تزيد الأمر وضوحاً في شأن نسيان الله وآياته ـ وهو خصلة من خصال اليهود والمنافقين ـ وتبعث في نفس المؤمن

الكثير من الخوف والرهب، من أن يجنح ـ لا سمح الله ـ عن الطريق السوي، ويقع فيما وقع فيه أولئك الجانحون الضائعون، من الإعراض عن ذكر الله: فتحقَّ عليه عقوبة ذلك، بأن ينساه الله من رحمته وعونه في الدنيا والآخرة. ذلكم قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٧].

هذا، وبالإضافة إلى النسيان الذي أومأنا إليه، دلت الآية الثالثة عشرة من سورة المائدة، أن اليهود ما يزالون يعاودون الخيانة لرسول الله ﷺ والمسلمين، فبعد قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. جاء قوله سبحانه خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾. هكذا يخاطب الله صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه، مقرراً خصلة من خصال اليهود، ومحذراً المؤمنين، فيقول سبحانه: ولا تزال يا محمد تطلع من اليهود، الذين أنبأتك نبأهم من نقضهم ميثاقي ونكثهم عهدي، وانحرافهم عن الصراط السوي، مع الوعد والوعيد، ومع أياديَّ عندهم ونعمتي عليهم... لا تزال تطّلع على مثل ذلك من الغدر والخيانة والكذب والفجور، إلا قليلاً منهم؛ فالقليل منهم لم يخونوا، والأكثر يخونون، ويكذبون، ويفجرون.

والخائنة: الخيانة. وقد روىٰ الإمام الطبري عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ قال: على خيانة وكذب وفجور، ويبدو أن المراد من الخيانة هنا، ما هموا به من الفتك بالرسول ﷺ - وإن كان اللفظ عاماً -، وقد حصل ذلك غير مرة. والهمُّ بالفتك بالرسول ﷺ من قبل اليهود أو غيرهم، هو ما أشارت إليه الآية الحادية عشرة من سورة المائدة: ذلكم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١]. فقد روى العوفي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في هذه الآية: «أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعاماً ليقتلوهم، فأوحى الله إليه بشأنهم، فلم يأت الطعام، وأمر أصحابه فلم يأتوه» رواه ابن أبي حاتم. وجاء في «تفسير القرآن العظيم» عند الحافظ ابن كثير قوله: وقال أبو مالك: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا بمحمد ﷺ في دار كعب بن الأشرف. رواه ابن أبي حاتم أيضاً، وكعب بن الأشرف من رؤوس اليهود - كما هو معلوم - وهذا ما نجده عند الطبري حيث روى بسنده عن أبي مالك في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: ١١]. قال: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا برسول الله ﷺ. وذكر محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهد وعكرمة وغير واحد، أنها نزلت في شأن بني النضير؛ حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ووكلوا عمرو بن جحش بن كعب

بذلك، وأمروه ـ إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار، واجتمعوا عنده ـ أن يلقي تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالؤوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله هذه الآية. وقال مجاهد وغيره: يعني بذلك تمالؤهم على الفتك بالنبي ﷺ.

على هذا تكون الخيانة تمالؤ اليهود ـ قاتلهم الله وشركاءَهم في الإثم ـ على اغتيال النبي ﷺ ـ وإن تعددت الصور ـ إذ سمُّوه أيضاً؛ فالآية الكريمة، تدل على تعدد وقائع الخيانة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣]. على أن هنالك رواية أخرجها الحاكم في المستدرك وصححها عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ، تجعل سبب النزول قصة أعرابي يدعىٰ غوث بن الحارث، دفعه قوم من العرب إلى اغتيال الرسول عليه الصلاة والسلام، ومنع الله نبيه عليه الصلاة والسلام مما أراده ذلك الأعرابي، وفي القصة طول.

والله المسؤول أن يبصر الأمة بشأن أولئك العاتين عن أمر ربهم، الذين لا يؤمن لهم جانب، كيف وقد قال الله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ...﴾ والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

قضايا ثلاث

واليهود.. هم اليهود

كانت رحلة مباركة، تلك التي سعدنا من خلالها بصحبة عدد من آي الكتاب الحكيم، كان من مضموناتها: مجموعة قضايا بالغة الأهمية في حياة المسلمين، والحفاظ على وجودهم المتميز بالإسلام؛ عقيدة وشريعة وسلوكاً.. بعيداً عن تيه الضياع، والتقليد الأعمى لأولئك الذين أوتوا الكتاب من يهود ونصارى، فطال عليه الأمد، وجنحوا عن الصراط السوي، فقست قلوبهم وانقلبوا على أعقابهم، فكانوا من الخاسرين.

كان مبدأ الرحلة، تذكيرَ المؤمنين بالعمل أبداً، على أن تخشع قلوبهم لذكر الله، كيما ينعكس ذلك على الجوارح، فتكون الاستقامة والتوجه الصادق إلى الله، بتقواه وإخلاص العبودية له.. وتحذيرَهم من أن يصيبهم ما أصاب أولئك الذين أوتوا الكتاب من قبل، فطال عليهم الأمد، فقست قلوبهم؛ وقسوة القلب إيذان بالانحراف والضلال، وقلوب العباد بيد الله وهو سبحانه القادر على تليينها وعطفها إلى الحق، فهو الذي يحيي الأرض بعد موتها، وما على العباد إلا أن يصدُقوا في حسن التوجه إليه.

وهذا الذي أشير إليه ـ بخطوطه العامة ـ وقفتنا عليه آيتان كريمتان من سورة الحديد، هما قول الله تبارك وتعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ**

﴿عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الحديد: ١٦، ١٧].

وعلى هدي الكلمة القرآنية المعطاء، قادنا الحديث عن هذه القضية، إلى أن يهود بني إسرائيل، قد رأوا من الآيات البينات والمعجزات الباهرات ما رأوا ـ ومنها إحياء الموتىٰ بإذن الله ـ وبدل أن ترق قلوبهم وتنفسح لبشاشة الإيمان أن تخالطها، قست وجفَّت؛ فهي كالحجارة أو أشد قسوة. ولما كان الأمر كذلك: كان الطمع في إيمانهم، موضع عتب على المسلمين. كيف وقد كان من آثار تلكم القسوة العمياء التي رانت على القلوب، أن فريقاً منهم كانوا يكتبون كلاماً من عندهم، ثم يزعمون للجهلة الذين لا يفرقون بين الحق ونقيضه: أن هذا الكلام كلام الله، وأنه التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه الصلاة والسلام.

ولم يقتصر الأمر على هاتين الموبقتين.. بل هنالك النفاق الذي يقصد إلى تتبع ما يزعمون أنه ثغرات عند المسلمين، والاطلاع على أسرار المجتمع المسلم، ومحاولة العمل على خلخلة الصف، من طريق المكر والتزوير الفكري والدّس اليهودي الآثم، فإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض، كان العتب والتأنيب، إذ يقول لهم زعماؤهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ؟!﴾ [البقرة: ٧٦].

وكان مصدر العطاء لهذه القضية، التي نلمح إليها بخطوطها العريضة أيضاً، ما جاء في سورة البقرة بعد الكلام عن تعسف بني

إسرائيل، وتنطعهم في شأن البقرة التي أمروا بذبحها من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة: ٧٢ - ٧٤]. هذا عن الشق الأول للقضية الثانية، أما عن الشق الثاني: فهاكم ما جاء بعد ذلك من الآيات التي تنبه وتحذر، وتأخذ بيد المسلمين إلى ساحة اليقظة التي تحول دونهم ودون أن يؤخذوا بظواهر الأمور بدلاً عن حقائقها، أو أن ينطلي عليهم النفاق وإظهار العدو غيرَ ما يبطن. كيما يكونوا قادرين بعد ذلك كله على الحكم الكلي؛ نتيجة الاستقراء المبصر للجزئيات والتصرفات.

والآيات التي هي مصدر العطاء لهذا الشق الثاني للقضية، والتي تلت ما أثبتناه قريباً، هي قول الله جلت قدرته: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [البقرة: ٧٥ - ٧٧].

أما القضية الثالثة التي كانت على طريق الرحلة: فهي ما أعلنته الكلمة القرآنية الهادفة بجلاء لا يحتمل اللبس، أن ما مُنيَ به يهود بني إسرائيل: من قسوة القلب وغلظ الأكباد ـ وقد جر ذلك عليهم من الوبال

ما جرّ، لما أنه كان طريقهم إلى العماية واستبدال الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير ـ... أن ما مُنوا به من ذلك كله، كان عقوبةً من الله لهم، انضمت إلى اللعن، وهو الطرد من رحمة الله، جزاء ما اجترحوا من نقض الميثاق الذي واثقوا الله عليه، فالقلوب القاسية لا تخشع لذكر الله وما نزل من الحق، ولا تتأثر بموعظة، ولا تستجيب لتذكير.. ومن هنا كان التمادي في الضلالة: معاداةً لرسول الله، ومظاهرةً للباطل على الحق، وتعدياً لحدود الله، وتراهم أبداً ـ كما هو واقع أجيالهم القديم منها والحديث ـ سادرين في الغي، وفي طغيانهم يعمهون، ومن مظاهر ذلك، أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به، فعاقبهم الله بأن حجب عنهم رحمته ـ نسوا الله فنسيهم ـ كل هذا مع الخيانة الدائمة من أكثرهم للرسول عليه الصلاة والسلام.

وقبسُ الهداية لهذا الذي أومأتُ إليه واكتفيتُ بالإلماحة، تذكيراً بما سبق، كان مصدره ما جاء في سورة المائدة من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾** ﴾ [المائدة: ١٢]. ونقرأ بعد هذا في الآية التي تلي، قول الله عز وجل: ﴿ **فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾** ﴾ [المائدة: ١٣].

تلكم هي القضايا الثلاث، والآيات الكريمات التي كانت دلالاتُها طريقَنا إلى تبَيُّنِها ـ والكلام على يهود بني إسرائيل ـ أردت أن أُذكِّر بها من طريق اللمحة العابرة، بعد أن عرضت لها مفرَّقةً في صفحات قريبات، وذلك بغية الحفاظ على التماسك بين تلكم القضايا قدر المستطاع.

ولعل من الخير، أن أجدد التذكير بما نجد في الكتاب والسنة، من خطاب اليهود في عصر النبي ﷺ، كأنهم هم الذين اقترفوا ما اقترف أجدادهم الأولون، بل وتوجيه الكلام أحياناً على أنه للآباء، مع أن الفاعلين هم الأحفاد، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ**﴾ كل أولئك لأن النهج ـ كما أسلفت ـ واحد، والمنطلقات الفاسدة الضالة واحدة، ولأن المتأخرين راضون كل الرضى عما فعل سابقوهم من الآباء والأجداد.

وفي خطوة تصلنا بالواقع المعاصر: أليس في ذلك كله درس أيُّ درس لأمة الإسلام أن تضع نصب عينيها في تعاملها مع أعداء الله، ومن يظاهرهم على الباطل، تلك الحقيقة التي أعلنها كتاب الله وبيانه من سنة رسول الله: وهي أن اليهود هم اليهود مهما اختلفت الأزمنة وتعددت العناوين، وأن يكون ذلك باعث يقظة على ساحة الفكر والاقتناع؛ فالصهيونية مثلاً، مخلب أزرق من مخالب اليهود. والوقائع المتجددة كل يوم، أوضح دليل على ما نقول، ولن تغير الزخارف من الحقيقة شيئاً.

ولقد عني علماؤنا الأولون، أيَّما عناية بتبيان العلاقة المشار إليها بين الآيات، كيما يكون المسلمون أبداً على بينة من أمرهم؛ ها نحن نرى

الإمام الطبري ـ وهو يحاول ترجيح ما قال ابن عباس بأن المقصودَ بالميثاق في قوله تعالى خطاباً للمؤمنين: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ﴾ [المائدة: ٧]. العهدُ الذي عاهدهم به، حين بايعوا رسوله محمداً ﷺ على السمع والطاعة له في المنشط والمكره.. ها نحن نراه يعلل ذلك بقوله: لأن الله ـ جلَّ ثناؤه ـ ذكر بعقب تذكرة المؤمنين ميثاقَه الذي واثقهم به، ميثاقه الذي واثق به أهل التوراة ـ بعد ما أنزل كتابه على نبيه موسى عليه الصلاة والسلام، فيما أمرهم به ونهاهم فيها ـ فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]. الآيات بعدها، منبهاً بذلك أصحاب محمد رسول الله ﷺ على مواضع حظوظهم من الوفاء لله بما عاهدهم عليه، ومعرِّفَهم سوء عاقبة أهل الكتاب، في تضييعهم ما ضيعوا من ميثاقه الذي واثقهم به في أمره ونهيه، وتعزير أنبيائه ورسله، زاجراً لهم عن نكث عهودهم، فيُحِلَّ بهم ما أحلّ بالناكثين عهودَهم من أهل الكتاب قبلهم.

هذا: ومما يزيد الأمر توكيداً، أن الآية التي ذكَّرت المؤمنين بالميثاق والسمع والطاعة: ختمت بصورة من الوعيد، هو قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝٧﴾ [المائدة: ٧]. اتقوا الله أيها المؤمنون، فخافوه أن تبدِّلوا عهد الله وتنقضوا ميثاقه الذي واثقكم به، أو تخالفوا ما ضمنتم له بقولكم: سمعنا وأطعنا، بأن تضمروا له غير الوفاء بذلك في أنفسكم، اتقوا الله وخافوا أن تبدلوا أو تنقضوا؛ فإن الله مطلع على ضمائر صدوركم، وعالم بما تخفيه نفوسكم، لا يخفى عليه شيء من ذلك، فيُحلَّ بكم من عقوبته ما لا قبل لكم به، كالذي حلَّ بمن

قبلكم من اليهود؛ من اللعن والمسخ وصنوف النقمة، وتصيروا في معادكم إلى سخط الله وأليم عقابه.

ألا وإن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ ـ عند الجمهور كما سبق ـ، فأنت واجد ـ وأنت تتلو هذه الآيات ـ كأنها تتنزَّل غضة طرية اليوم، لتقول لأمة الإسلام محذرة منذرة: استيقظوا، تنبهوا.. إن الخطوة المتقدمة على طريق التمكين والنصر على أعداء الله وأعداء الحق، وإنقاذ الأقصى الذي بارك الله حوله، وكل أرض مغتصبة من أرض الإسلام... إن الخطوة المتقدمة على هذه الطريق ـ التي لها ما لها من التكاليف ـ تبدأ من تمثُّل إيماني لهذه الحقائق وأمثالها، وتوظيف ذلك على صعيد الواقع العملي في ساحات المواجهة والتحدي ـ وما أكثرها وأوفر شعابها ـ والله المستعان.

والنّصارى.. شركاؤهم في الإثم

في متابعة لبعض ما جاء في الكتاب والسنة من توجيه المسلمين ـ وهم أصحاب الرسالة الخاتمة وأمة الشهادة على الناس ـ إلى أن يكون لهم وجودهم المتميز بارتباطهم بمنابع الهداية، وأن يأخذوا حذرهم أبداً من الغفلة عن بواطن الأمور، ومن الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، والذين أوتوا الكتاب فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون.

في متابعة لهذا الهدي الرباني: نحن على موعد، مع الإشارة إلى أن ما رأينا من الضلالة العمياء التي رانت على القلوب في يهود بني إسرائيل ـ وكانت عقوبة مضمومةً إلى لعنهم وطردهم من رحمة الله ـ جزاء ما اقترفوا من نقض الميثاق الذي عاهدوا الله عليه.. مرتبط ـ والله أعلم ـ تمام الارتباط بقضية التحذير الجازم، تحذير المسلمين من الانزلاق إلى أية مهواة انزلق إليها اليهود أو النصارى؛ فالمسلمون ملزمون بالوفاء بعهد الله وميثاقه، وأن يكونوا على الصراط السوي: نشداناً للحق، وإقامة للعدل، وإلا أصابهم ما أصاب أولئك المغضوب عليهم والضالين الذين نقضوا ميثاق الله الذي واثقهم به، فحلّ بهم ما حلّ من اللعن وقسوة القلب وغلظ الأكباد، فكان ذلك سداً منيعاً دونهم، ودون أن تنالهم رحمة الله في هذه الدار، أو في الدار الآخرة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وكفى بالله حسيباً.

وقد سُبقت الآيتان اللتان عرضتا للميثاق، ونقضه، وعقوبة يهود بني إسرائيل على ذلك النقيض، وهما الآية الثانية عشرة من سورة المائدة المبدوءة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا...﴾ [المائدة: ١٢]. والآية الثالثة عشرة المبدوءة بقوله جل شأنه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً...﴾ [المائدة: ١٣]. سبقت الآيتان بتذكير المؤمنين بنعمة الله وميثاقه الذي واثقهم به، وأن تكون تقوىٰ الله نصب أعينهم. وأمرهم بأن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط، وأن يدوروا مع الحق حيث دار، ويقيموا العدل دون تأثر بأي عارض مهما كان شأنه.

ولكن قبل الإتيان بالنص، أود التذكير بأن الحديث في الآيتين الماضيتين في شأن العهد ونقضه، لم يقتصر على يهود بني إسرائيل، بل امتد ذلك الحديث إلى النصارى ـ كما أشرنا إلى تلك الحقيقة المقررة بشأن الفريقين آنفاً ـ فبعد قوله تعالى في الآية الثالثة عشرة من سورة المائدة ـ والضمائر عائدة إلى يهود بني إسرائيل ـ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣]. بعد هذه الآية الكريمة، نقرأ قول الله تباركت أسماؤه: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة: ١٤].

هكذا ترى: بعد الحديث عن أولئك، يجيء قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ الآية. أي ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى

متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام ـ وليسوا كذلك ـ أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ والوقوف عند الحق الذي جاء به، ومناصرته ومؤازرته، واقتفاء آثاره، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله إلى أهل الأرض، ففعلوا كما فعل اليهود، فخالفوا عن أمر الله واستبدلوا الكفر ومناهضة الرسول عليه السلام، بالإيمان به ومتابعته ومناصرته، والسير وفق هديه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾. ثم جاء التهديد والوعيد للنصارىٰ، بما ارتكبوه من الكذب على الله ورسوله، وما نسبوه إلى الرب ـ عز وتقدس، وتعالى عن قولهم علوا كبيراً ـ فقال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. وسبحان الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

أما النص الذي ما بدٌّ من ذكره، وهو المتعلق بما يجب أن يكون عليه المسلمون، وتبدو العروة التي تربط بينه وبين ما كنا بصدده من الآيات قائمة ـ والله أعلم ـ على تنبيه المسلمين إلى ما يجب، ووضع أيديهم على مكامن الخطر التي أوقعت أولئك الكافرين فيما أوقعتهم فيه.. أما ذلك النص: فهو ما تطالعنا به تلكم الآيات التي تبدأ بالآية السابعة من السورة نفسها سورة المائدة، ذلكم قول الله تبارك وتعالى خطاباً للمؤمنين: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة: ٧، ٨]. وفي أعقاب ذلك، نقرأ

قوله جل شأنه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ٩ - ١١].

يذكّر الله تعالى عباده المؤمنين، نعمتَه العظمىٰ عليهم، في شرعه لهم هذا الدين العظيم، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم الموحى إليه بالقرآن، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق؛ في مبايعته على الاقتداء بهديه ومناصرته ومؤازرته، والقيام بأمور دينه الذي دعا إليه، وإبلاغه عنه وقبوله منه. وفي ذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. والمقصود بالميثاق ـ كما روي عن ابن عباس والسدّي ـ ميثاق الله الذي واثق به المؤمنين من أصحاب الرسول ﷺ، وهو البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم؛ كما قالوا: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله. وقال الله جل شأنه: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الحديد: ٨]. وقيل: هذا تذكير لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه، روى ذلك علي بن طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: الميثاق تذكار بما أخذ ربنا تبارك وتعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه وأشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢]. وقد روي ذلك عن مجاهد ومقاتل بن حيان.

ورجح الإمام الطبري القول الأول، وهو التذكير بنعمة الهدى إلى الإسلامِ والبيعةِ التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ. وإذن: فأوفوا لله أيها المؤمنون بميثاقه الذي واثقكم به، ونعمته التي أنعم عليكم، في ذلكم بإقراركم على أنفسكم بالسمع له والطاعة فيما أمركم به، وفيما نهاكم عنه، يوفِ لكم بما ضمن لكم الوفاء به ـ إذا أنتم وفيتم له بميثاقه ـ من إتمام نعمته عليكم، بالتمكين لكم في الأرض، ونصركم على عدو الله وعدوكم، وبإدخالكم جنتَه، وإنعامكم بالخلود في دار كرامته، وإنقاذكم من عقابه وأليم عذابه.

والذي دعا شيخ المفسرين إلى ترجيح القول المشار إليه، هو ما جاء بعد ذلك بشأن ميثاق الله الذي واثق به أهل التوراة؛ الأمر الذي يؤكد ما ذكرنا آنفاً عن العلاقة بين هذه الآيات وبين قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا...**﴾ الآيات بعدها.. ولهذه المسألة مزيد بيان إن شاء الله.

احـــذروا

مهلكات اليهود والنصارى

هذه متابعة للرحلة المباركة التي زانها النظر في مجموعة من الآي في سورة المائدة، تحمل ما تحمل من توجيه المسلمين إلى المنهج الأقوم، وتباعد بينهم وبين التقليد لأولئك اليهود الذين غضب الله عليهم، وكانوا من الخاسرين. فالمقطع الأول من تلكم الآيات ـ ويبدأ بالآية السابعة وينتهي بانتهاء الحادية عشرة: يخاطب المؤمنين بعدد من الأمور المهمة كان في مقدمتها: ما أمرهم به، من أن يذكروا نعمة الله عليهم، وميثاقه الذي واثقهم به، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، وفضله الذي عمهم به حيث قالوا: سمعنا وأطعنا، فلم يخونوا الأمانة، ولم ينكثوا العهد.. وأن عليهم أن يتقوا الله في كل شاردة وواردة، ومن ذلك: هذا الذي يذكرهم به، إن الله عليم بذات الصدور.

أما المقطع الثاني: فيبدأ بالآية الثانية عشرة وينتهي بانتهاء الرابعة عشرة، وقد تضمنت الآيات هنا ـ فيما تضمنته ـ تنديداً بما كان من بني إسرائيل، من مخالفة عن أمر الله، ونقض للميثاق الذي واثقوا الله عليه، بأن يكونوا على الطريق التي دعاهم إليها نبيهم الموحى إليه موسى عليه الصلاة والسلام.. وعندما وقعوا في هذه المهواة الضالة، أحلَّ الله به نقمته وغضبه، فطردهم من رحمته، وجعل قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به... وجاء أحفادهم ليؤكدوا حقيقة

انحرافهم، فسلكوا نهجهم الظالم المنحرف، وكانوا على رضىً تامٍ بسوء صنيعهم... وكان من شنيع فعالهم: أنهم لا يتوقفون ـ إلا قليلاً منهم ـ عن خيانة الرسول عليه الصلاة والسلام، فهو لا يزال يطلع على خائنة منهم بين الحين والحين.

والناظر في الآيات، بدءاً من الآية السابعة حتى ختام الآية الرابعة عشرة، وهو على ذكر من أن الآيات في المقطع الأول: جاءت تخاطب المؤمنين، وأن باقيَ الآيات جاءت تتحدث عن يهود بني إسرائيل، وصنيعهم كما عرضت في الآية الأخيرة للنصارى وصنيعهم... الناظر في الآيات متدبِّراً متبصِّراً، ما بدٌّ من أن يلاحظ العلاقة الواضحة، التي تقوم على تذكير المؤمنين وتنبيههم على عدد من القضايا ـ كما أسلفنا ـ وفي مقدمتها أن يذكروا نعمة الله وميثاقه الذي واثقهم به، إذ قالوا: سمعنا وأطعنا، لكيلا يقعوا فيما وقع فيه يهود بني إسرائيل، ومن يشاركهم الإثم، من نقض الميثاق مع الله وخيانة الأمانة، والإعراض عن الحق؛ الأمرُ الذي عاد عليهم بالنقمة والغضب، فقست قلوبهم وراحوا يعبثون بآيات الكتاب المنزل، ويحرفون الكلم عن مواضعه، فيؤولونه على غير وجهه، وقد يفترون على الله الكذب، بأن ينسُبوا إليه كلاماً قالوه هم من عند أنفسهم، ونسوا حظاً مما ذكروا به، وتراهم مقيمين مقعدين على طريق الخيانة للنبي ﷺ، ونكث العهد معه ـ إلا قليلاً منهم ـ على حينِ كان يعاملهم بالصدق والاستقامة والوضوح.

وقد آن لنا أن نورد الآيات التي نلمح إليها، سواء ما يتعلق بالمسلمين، وما يتعلق باليهود، كيما يزداد الأمر وضوحاً، ويتبيَّن للمسلم ـ وهو ينظر

فيها مجتمعةً ـ مدىٰ دلالاتها على تحذير المسلمين من أي تهاون بالذاتية والأصالة، ودعوتهم إلى الارتباط الصادق بمنبع الهداية كما جاء بها النبي ﷺ، وأن يأخذوا حذرهم من أي لون من ألوان التقليد الأعمى؛ لأولئك المغضوب عليهم الذين استحوذ عليهم الشيطان، فكان انحرافهم سبباً للسخط وقسوة القلب والطرد من رحمة الله. وكان لذلك ما له من آثار سيئة وعقابيل، قال ربنا جل شأنه خطاباً للمؤمنين: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ٧ – ١١].

ثم قال سبحانه وتعالى مبيناً ما صنع يهود بني إسرائيل ومن بعدهم الموالون المدّعون أنهم نصارى، وما حلّ بهم من النقمة، جزاء الانقلاب على الأعقاب، ونقض الميثاق، قال جل ذكره: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ

فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ [المائدة: ١٢ – ١٤].

obeikandl.com

لا تقولوا راعنا.. ماذا قبلها؟

يقودنا الحديث عن تنبيه القرآن المؤمنين على أن يأخذوا حذرهم ـ على كل صعيد ـ من أن يستحوذ عليهم الشيطان والهوى، فيقعوا فيما وقع فيه يهود بني إسرائيل ـ الأجداد منهم والأحفاد ـ من انحراف عن الصراط السوي فكراً وعملاً وسلوكاً.

يقودنا هذا الحديث ـ الذي يبدو محورَ الهداية في عدد من آيات سورة المائدة التي مرت بنا من قبل ـ إلى ما نجد في سورة البقرة من نهي صريح للمؤمنين في عهد النبي ﷺ، عن استخدام كلمة كان اليهود يستخدمونها ـ عند مخاطبة الرسول الكريم ـ مصطلحاً لهم، يريدون به أمراً سيئاً على غير ما يتبادر من ظاهر اللفظ؛ والكلمة هي قولهم: «راعنا» ونهي المسلمون عن استخدامها، والاستعاضة عنها بكلمة «انظرنا».

فإذا كان التحول عن الذاتية وأصالة التعبير، إلى التقليد حتى في المصطلح الذي اتخذه اليهود في خطابهم للنبي عليه الصلاة والسلام، يجابَه بالنهي الصريح، والأمر باستعمال البديل، فكيف بالتقليد الأعمى عندما يكون على صعيد المنهج في المعتقد، والعمل والسلوك، مما له تَعَلُّقٌ وصِلَةٌ بشيء من أمور العقيدة، أو الشريعة، أو الأخلاق؟؟. إنه الوجود الذاتي للأمة المسلمة التي لا يكون على الحقيقة، إلا مع الارتباط الواعي بأصول الهداية ومنابعها الخيِّرة، والإفادة من توجيهات القرآن والسنة

المطهرة، في شأن الموقف الذي يجب اتخاذه من اليهود والنصارى، بناء على ما يتصفون به من الخلائق التي تبدّت ملامحها معرّاةً دونما لبس أو احتمال، ولا تزال الوقائع تؤكد ذلك يوماً بعد يوم، الأمر الذي يزيد المؤمن يقيناً على يقين، بأن هذا القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن محمداً ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ رسول من عند الله العليم الخبير، بل هو إمام وخاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام.

والكلمات الهاديات التي نعنيها: هي ما جاء في الآية الرابعة بعد المائة من سورة البقرة المشار إليها.. من قول الله تبارك وتعالى خطاباً للمؤمنين: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾** ﴾ [البقرة: ١٠٤] تلا ذلك قوله تعالى: ﴿ **مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾** ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وقبل النظر في الآيتين الكريمتين، وتبيُّنِ ما لهما من دلالة على ساحة القضية التي نحوِّم حولها، وهي أن يكون المسلمون على اليابسة؛ استشعاراً لوجودهم الذاتي، وارتباطاً بما جاءهم عن الله وعن رسوله عليه الصلاة والسلام، بعيداً عن تقليد اليهود والانزلاق فيما انزلقوا فيه من ضلال وعدوان على الحق... قبل النظرة التي لا يحتمل أكثر منها المقام، أود الإشارة إلى أن هاتين الآيتين، سُبقتا بتعرية واضحة لموقف اليهود من الأنبياء، وكيف أنهم ناكثون للعهود أبداً، يعطون العهد اليوم، وينقضونه

غداً. يكفرون بمحمد خاتم النبيين ـ والفطرة السليمة تقضي بأن يصدقوا بما جاء به ويتبعوه. وكتابهم ـ لو صدقوا ـ يأمرهم بالإيمان به، بعد أن أوضح لهم صفاته وما به يعرفونه. وكان لأجدادهم ذلك الموقف المخزي، من سليمان عليه السلام، حيث اتهموه بالكفر، وولّوا ظهورهم للحقيقة، واستشرفوا للسحر والباطل، بل اتبعوا ذلك واستبدلوه بالحق والمنهج الرشيد، فكأن الحكمة في السياق القرآني هنا، توحي بأن هؤلاء اليهود ـ وهم على هذه الصفة ـ من سبق منهم ومن لحق ـ هم الذين ينهى الكتاب الكريم أمة الإسلام عن تقليدهم، وسلوك أي سبيل، قد تجر إلى منهجهم المعادي لله ولرسله وللمؤمنين.

هؤلاء نحن أولاء ـ بدءاً من الآية التاسعة والتسعين ـ نقرأ قول الله جل ذكره فيهم وفي عدوانهم على الحق، ومظاهرتهم الكفر على الإيمان: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [البقرة: ٩٩ – ١٠٣].

هكذا يتصدّر هذه الآيات، ما يدل على أن كفر اليهود بمحمد ﷺ، كان كفراً في مواجهة الحق الذي له أدلته الواضحة، وبراهينه اليقينية في نفسه، وفيما بين أيديهم من كتاب، أن لو صدقوا مع الله ومع أنفسهم. ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ والخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك، وتلك الآيات هي ما حواه كتاب الله الذي أنزله إلى محمد ﷺ من خفايا علوم اليهود، ومكنون سرائر أخبارهم، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل، والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم، وما حرَّفه أوائلهم وأواخرهم ـ كما يقول الإمام الطبري ـ وبدّلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة، فأطلعها الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، فكان في ذلك من أمره، الآيات البينات لمن أنصف نفسه، ولم يدْعه إلى إهلاكها الحسد والبغي.

وبصرف النظر عما بين أيديهم من صفات محمد ﷺ، يجد العاقل أن الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ ـ وقد قام الدليل ووضحت الحجة ـ هو ما تدعو إليه الفطرة السليمة ـ كما ذكرت آنفاً ـ. يقول شيخ المفسرين ـ رحمه الله ـ: (إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل الذي أتى به محمد ﷺ من الآيات البينات التي وصفت، من غير تعلم من بشر، ولا أخذ شيء منه عن آدمي).

ولكن اليهود ـ وقد رانت على قلوبهم ظلمة الحسد والبغي ـ ما كانوا يلقون بالاً لواحدةٍ من تلكم العلامات الدالات على نبوة محمد

عليه الصلاة والسلام، ولا يعيرون سمعاً لأية كلمة من كلمات الحق.

أخرج الإمام الطبري بسنده عن ابن عباس – رضي الله عنهما – في معنى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ يقول: «فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غُدوة وعشية، وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتاباً، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه.

يقول الله: ففي ذلك لهم عبرة وبيان، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون، ولكن الذي كان منهم، هو الجحود المطلق: الجحود الذي يكشف عنه ما روي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: قال ابن صوريا الفطيوني لرسول الله ﷺ: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية بينة فنتبعك بها، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾. أجل وما يكفر بتلك الآيات الدالة على صدق نبوة محمد ﷺ وما يجحد بها، إلا الخارجون عن دائرة الحق، التاركون لما فرض الله عليهم، من الإيمان بتلك الآيات البينات.

اللّهم اهدنا سواء السبيل، وأنر بصائرنا، لنكون أشد تمسكاً بالحق الذي نزل به كتابك في شأن أولئك المغضوب عليهم، عسى أن نتجاوز الواقع الأليم، إلى واقع يحمل بشائر النصر والتمكين. وأنت ـ جل ثناؤك ـ المحمود على كل حال.

الذاتية.. والالتزام الدقيق

الحديث موصول بما جاء في القرآن الكريم، على ساحة الهداية، في شأن الابتعاد عن تقليد اليهود في أقوالهم وأفعالهم، والحذر من الوقوع في أحابيلهم الماكرة؛ كالذي نرىٰ في سورة البقرة بدءاً من الآية الرابعة بعد المائة من قول الله جلّ وعز: خطاباً للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٤ - ١٠٥].

ونحن اليوم، على موعد مع اصطحاب الآيتين الكريمتين، لنبين ـ قدر المستطاع ـ مواطن الهداية في دلالتهما على الطريق، التي على المسلمين أن يسلكوها، كيما يكون لهم التميُّز الواضح، بتطويع السلوك لمنهج الإسلام، وأن لا يقعوا فريسة التقليد الأعمى، والتشبه بالمغضوب عليهم أو الضالين ولو بالكلمة يقولونها، والمصطلح الذي يخفي وراءه ما يخفي عندهم.

ولعل من الخير أن نبادر إلى القول: بأن الروايات في أسباب النزول، تدل على أن المؤمنين قد نهوا عن أن يقولوا: «راعنا» في خطابهم للنبي عليه الصلاة والسلام.

ولكن ما هو السبب الذي من أجله، نهىٰ الله المؤمنين أن يقولوا في

خطابهم لصاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه: «راعنا»؟ هنالك عدد من الروايات يأتي في مقدمتها: أن هذه الكلمة كلمةَ «راعنا» كانت مصطلحاً لليهود، يقولونها على وجه الاستهزاء والمسبَّة، ذلك أنهم كانوا يختارون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص استهزاءً وسخرية ـ عليهم لعائن الله ـ فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا قالوا: «راعنا»، ويورُّون بالرعونة والرعونة أمر غير محمود، أو يقصدون دلالتها في لغتهم؛ حيث قيل. إن المعنى عندهم: (اسمع لا سمعت)، وكل أولئك من الخبث المتأصل في النفوس، والحقد الذي يدفعهم، حتى إلى العبث بالألفاظ، واتخاذها مصطلحاً بائراً يروون به غليلهم وحقدهم الدفين، فتراهم يظهرون أنهم يريدون المعنى العربي، مبطنين ما يقصدون من الاستهزاء والشتم الذي هو معنى اللفظة في لسانهم، مستعينين بالتورية عما يريدون. من أجل ذلك جاء النهي الصريح للمؤمنين عن أن يقولوا: «راعنا» وأن يقولوا بدلاً عنها في خطابهم للنبي عليه الصلاة والسلام: «انظرنا».

أخرج الطبري بسنده عن قتادة أنه قال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا**﴾ قولٌ كانت تقوله اليهود استهزاءً، فزجر الله المؤمنين أن يقولوا كقولهم. كما أخرج عن عطية: «لا تقولوا راعنا» قال: كان أناس من اليهود يقولون: أرعنا سمعك، حتى قالها أناس من المسلمين، فكره الله لهم ما قالت اليهود فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا**﴾ كما قالت اليهود.

وفي رواية أخرىٰ عن قتادة أنه قال في معنى الآية: كانوا يقولون راعنا سمعك، فكان اليهود يأتون فيقولون مثل ذلك مستهزئين، فقال الله: ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾.

ولئن كانت هذ الروايات، تشير بأصبع الاتهام إلى اليهود ـ عموماً ـ إن هنالك رواية تصرح بأن الكلمة المشار إليها كانت كلام يهودي بعينه، يقال له: رفاعة بن زيد، كان يكلم النبي ﷺ على وجه السبِّ، وكان المسلمون أخذوا ذلك عنه بحسب ما يعطيه ظاهر اللفظ، فجاء التنبيه والزجر، ونهوا عن قيل تلك الكلمة للنبي ﷺ. هذه الرواية نقع عليها عند شيخ المفسرين – رحمه الله – منسوبة إلى السدّي حيث روى عنه بسنده أنه قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾. كان رجل من اليهود ـ من قبيلة من اليهود ـ يقال لهم: «بنو قينقاع» كان يدعى رفاعة بن زيد بن التابوت، كان يأتي النبي ﷺ، فإذا لقيه فكلَّمه قال: أرعني سمعك واسمع غير مُسْمَع، فكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفَخَّم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مُسمَع كقولك: اسمع غير صاغر وهي التي في النساء: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]. يقول: إنما يريد بقوله: طعناً في الدين، ثم تقدم إلى المؤمنين ـ أي أمرهم ـ فقال: ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾.

والناظر في هذه الرواية التي تدل على أن فرداً من اليهود، كان يفعل تلك المساءة، مع الروايات الأُخر التي تدل على أنهم ـ بعمومهم ـ كانوا

يفعلون ذلك، لا يجد تعارضاً بينها، لما أن من الممكن أن يكون ذلك الكافر الضِّلِّيل، قد بدأ ذلك، وتبعه الآخرون، أو أن له ميزة خاصة في القدرة على إظهار غير ما يبطن؛ فكان أن أُفرد بالرواية عنه.

ومهما يكن من أمر: فإنه على تعدد المرويات في سبب النزول، يقودنا النظر في الآيات المتعلقة بذلك ـ ومنها ما جاء في سورة النساء، كما رأينا من قريب ـ إلى أن فعلة اليهود ـ والله أعلم ـ هي المحور في الموضوع؛ وهو ما أشرنا إليه في صدر هذا الكلام، من أن الروايات في سبب النزول، يأتي في مقدمتها: أن كلمة «راعنا» كانت مصطلحاً سيئاً لليهود في خطابهم للنبي ﷺ، ينطقون به، ويورُّون عما في دخيلة نفوسهم من الانتقاص والاستهزاء.

والملاحظ أن قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ يأتي له مزيد من البيان في سورة النساء، يوضح بأن اليهود هم أصحاب المصطلح في الكلمة التي نهي المؤمنون أن يقولوها في خطابهم للنبي عليه الصلاة والسلام، والذي نعنيه من سورة النساء الآية السادسة والأربعون؛ وقد ورد أكثرها في رواية السدي من قريب، ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿**مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴿٤٦﴾**﴾ [النساء: ٤٦].

فهذه الآية الكريمة واضحة الدلالة بالنص الصريح، على أن اليهود يصدر عنهم ذميم الفعل والقول، لأن كلمة «من» هنا في قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ لبيان الجنس كقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، فهم يحرفون الكلم عن مواضعه؛ يتأولونه على غير تأويله، ويفترون على الله، فيفسرونه بغير مراده عز وجل، فيقولون للنبي ﷺ: سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه، واسمع غير مسمع وراعنا؛ أي اسمع لا سمعت؛ هكذا يقولون، ـ عليهم غضب الله ولعناته ـ يقولون ذلك ليّاً بألسنتهم وطعناً في الدين، يعني بسبِّهم النبي ﷺ ـ فداه أبي وأمي وبعثه المقام المحمود في الآخرين ـ.

وهكذا تبدو العلاقة بين ما جاء في سورة البقرة، وبين ما جاء في سورة النساء، والقرآن يُفسِّر بعضه بعضاً؛ فما جاء مجملاً في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا﴾ جاء صريحُ بيانه في سورة النساء، وأن اليهود هم الذين كانوا يلوون ألسنتهم بقالة السوء ـ مع نفاقهم ـ طعناً في الدين وانتقاصاً من صاحب الرسالة، ومزاولةً لحرب شرسة غيرِ معلنة، ولكن الوحيَ كان لهم بالمرصاد، فتنزلت الآيات البينات، تكشف عن خبيئة تلك النفوس، التي أنهكها المكر وحب الفساد والإفساد. وحملت الكلمة الهادية نهيَ المؤمنين عن تقليدهم فيما يقولون، وأن يكونوا متبصرين يقظين ـ حتى في الكلمة ينطقون بها ـ ولذلك ماله من الآثار الطيبة، على صعيد ما يراد للأمة من الذاتية المستنيرة، والالتزام الإيمانيِّ الدقيق.